ميشال نوفل

أن نعيش قليلاً أو كثيراً

يرحل السيد هاني فحص حاملاً أحلامه وخيباته إلى ما وراء جدار الحد الفاصل، ينغرس في تراب فلسطين التي أحبها وكرس لها حياته حتى الرمق الأخير؛ ينتصر السيد على موته بلقاء الشهداء الذين رحلوا قبله إلى الأرض الموقوفة للميعاد.

في وداع السيد يَحضُر مشهد أفول حركة التحرير الوطني الفلسطيني، وتعود بنا الذاكرة إلى المراسم المهيبة التي كانت الحركة في زمن صعودها تقيمها إحياء لذكرى الشهداء الأبطال والمناضلين. ما من هيئة حزبية أو سياسية عربية استطاعت تنظيم مثل هذه المراسم (الجنائزية) وبالتعبئة الحيوية التي حركت تلك الجموع الشعبية العربية. ثقافياً كان أبناء الحركة يرون أنفسهم فدائيين عابرين على طريق تحرير القدس، وهذا بالتحديد ما كانوه في زمن البدايات. بل كانوا يرون أن الإنجاز في حياتهم يتحقق من طريق الاشتباك والالتحام بالعدو... ومن هنا كان الوداع / الانقطاع عن النشاط الحركي يُعتبر نوعاً من التخلي أو الانسحاب غير المبرر، وكانت الأكثرية العظمى من الرفاق السابقين غير معنية بالتفتيش عن بديل سياسي؛ فهي لا تحتاج إلى أي حاضنة أُخرى.

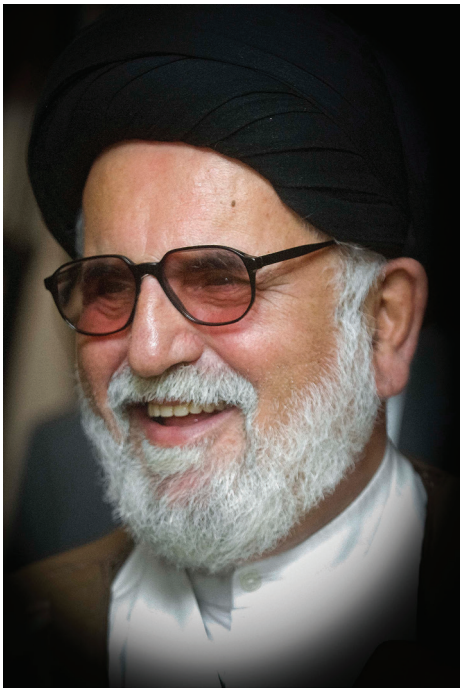

يعرف الحداد / الوداع مراحل مختلفة وأشكالاً متباَينة، قد تتقاطع مع أعمال بعض علماء النفس الذين يسعون لتفكيك ألغاز الظاهرة. طبعاً، إن الأمر هنا لا يتعلق بموت حبيب أو صديق عزيز، وإنما بموت الإيمان بالتنظيم، بالرابطة الجماعية وأجوائها الثقافية.. والمؤلم في عملية الحداد هذه، هو التجرؤ على قتل المقدس من

المبادىء (الكفاح المسلح؛ التناقض الرئيسي والتناقضات الثانوية؛ تحرير فلسطين من البحر إلى النهر..) من دون قتل المقاومة والسباحة بعكس التيار.

يمضي قطار الشهداء الأبيض في طريقه نحو سماء ملبّدة بالغيوم الشرقية؛ الدخان الكثيف المنبعث من قطار العودة ينقشع فجأة كالسحر فيظهر الحكيم عمر محجوب فاتحاً ذراعيه للسيد الذي دأب على زيارته في القاهرة في حي المنيرة القريب من مقام السيدة زينب، عقب الوعكة التي ألمّت به في قطاع غزة. الحكيم كعادته يصرّ على طرح الأسئلة الصعبة مبدياً انزعاجه فجأة من هذه الضوضاء التي ترافق مرور القطار، والتي تثير الخوف قليلاً. يُعاتب الحكيم السيد على المعاملة غير اللائقة التي حظي بها القائد أبو جهاد / خليل الوزير خلال زيارته التاريخية لطهران، ويُلاحظ أن الحداد / الوداع محكوم بمنطق يُسمى الانشقاق حيث كل خطوة تصبح علامة في مسار اللاعودة: نداء الخارج يتلازم مع رفض الداخل، والروابط بالتنظيم تتراخى من جانب المنشق، لكنها تُقطع من جانب التنظيم نفسه، وعندها تُسحب الثقة من المشاكس، ومع الثقة كل العناصر التي تُغذيها مثل التضامن والصداقة والتواطؤ...

يردّ السيد أن الألم الأكبر هو في التخلي عن الجماعة التي تعمل كرابطة مضادة تم اختيارها بحرية، وهي تنمّي شعوراً بالانتماء وتعطي الانطباع بوجود جماعة متساوية، فضلاً عن الإطار التنظيمي الذي يحمل غالباً اسم بطل أو قائد راحل، يعمل بصفة كونه ذاكرة جماعية حيث الأقدمون ينقلون الخبرة والمعرفة إلى المنضوين الجدد.

يتردد الحكيم كأنه يريد أن يسجل على صديقه النجفي (الليبرالي على هواه) مفارقة: المصري القبطي (الأصولي على طريقته) يدخل في التنظيم كما يدخل في الدين، وينتمي شرعاً إلى خلية بيت لحم الأولى التي تولّى إدارتها يسوع الناصري... غير أن الحكيم لا يلبث أن يعود موقتاً إلى العالم الحقيقي قائلاً إن انتظاره الطويل في محطة القاهرة جعله يلاحظ أن قوافل الشهداء التي غادرت هي من الكثافة بحيث أن ضجيجها يغالب الصمت، وإن كانت الخسارة كالموج المتلاطم تحاصرنا ولا نقوى على مقاومتها.

ندرك فوراً في أعماقنا أن الموت ضرب ضربته وجعلنا نتغيّر، مفسحاً للحنين بأن يفعل ما يشاء في جروح الماضي. وتلح عند ذلك الحاجة إلى الكلام ورفض التكتم على ما يؤلمنا، ثم الرغبة في مواجهة حالة مشتركة لنا جميعاً، هي الخوف من الحداد / الوداع!

في مرحلة أولى نستكشف كل ما ينأى عنّا يوماً بعد يوم: الشباب؛ حلم التغيير؛ الثورة المغدورة؛ العالم المتحول جذرياً تحت أعيننا... بعد ذلك نرى أن علينا تجاوز جميع الصعوبات والتحفظات لطرح السؤال الذي يصعب تحمّله: موت الآخر. كيف نتحمّل الغياب عندما يصير أشد وطأة من الحضور؟ أخيراً، يتعين التفتيش عن الوسائل التي تسمح باستئناف العمل، أي الاستمرار في الحياة على الرغم من العذاب المضني الذي يُصيبنا بالشلل أحياناً.

ويتواصل الحوار بين السيد والحكيم خلف جدار الموت، فإذا بالحكيم يتقمّص شخصية "الآخر" ويسأل: هل يمكن أن نجد في رحاب أنفسنا علاجاً لليأس عبر الصراخ والضحك أو الكلام أو الكتابة، كي يصير في إمكاننا أن نتذكر؟ أم يتعين الغوص في المظاهر الاحتفالية التي يتوفر عليها المجتمع التقليدي؟ يردّ السيد سريعاً أن الوقت لم يحن

بعد لوضع مسح شامل لمجالس العزاء منذ نكبة ١٩٤٨، وإظهار الوشائج المعقّدة التي يقيمها المجتمع مع الموت والحداد. يتلقف الحكيم النقص في الجواب المتعثر ليتحدث عن العزاء من باب التعويض المستحيل، مشدداً على أن الحداد هو جزء من الحياة، لأن مغامرة الحياة تعني أن نقبل الخسارة؛ القبول بقواعد اللعبة هذه يفرضه ليس أن نساهم في أن تتغلب الحياة على الموت فحسب، بل الإنصات باهتمام أيضاً إلى صوت الألم الذي يحمله كل إنسان منذ الولادة.

ويمضي محجوب في مواساته قائلاً إن غياب الأحبة لا يمكن أن يُعوّض، وإن مفهوم التعويض يستحق على الأقل أن يُعاد النظر فيه، فإذا كانت ألوان الحزن والبكاء والإبداع، أو ضروب المراسم الاحتفالية، تساعد في استمرار الحياة، فهل هذا يجيز الكلام على التعويض؟ لماذا لا نتصور أنه يمكن أن نعيش قليلاً أو كثيراً، أو نعيش تحت وطأة الجنون؟!

نتخيّل السيد في زحمة هذه الأسئلة يندفع إلى إلقاء خطبة عن معنى الموت والحداد والتعويض. يقول إن الحداد هو مدرسة الإنسان، وما الألم والموت سوى المُدرّس. يضاف أن المتعة والفرح نتعلم منهما أكثر، لكن من دون الموت يستحيل أن نتعلم كل ذلك؛ الموت هو أفق كل حقيقة، وهو للإنسان مآل الفكر، على الأقل بالنسبة إلى الفرد الذي يقبل دروسه. الفلسفة أيضاً تساعدنا في فهم الحداد، أي الخسارة التي يقدّم الموت نموذجها الحاسم وربما الأنقى. ومن هنا ضرورة التفكير في قبول الخسارة لأن "الموت لن يأخذ منا سوى ما أردنا امتلاكه."

في حوارية السيد والحكيم ندلف إلى وادي الحكمة بعيداً عن الجنون المتفشي في زمن اللايقين، ولا نسعى مطلقاً لاستعادة صورة مثالية لما كان، إذ لا قدرة لدينا على إعادة عقارب الساعة إلى ما قبل الخسارة. أمّا فكرة التعويض فقد تصبح مقبولة عندما تُحيل إلى فكرة الشرخ أو الصدع أو الانكسار.

عندما يُعلَن انتهاء الحداد، وهو لا ينتهي أبداً بالفعل، يبقى هناك أحياء عانوا خدوش الزمن والنكبات. وإذا اعتبرنا أن لا خجل في العيش بعد الأحباء الذين عبروا الجدار، فإن أي حلم في الحلول مكانهم أو سدّ النقص أو محوه، إنما هو مجرد وهم. إن الأخذ في الاعتبار حقيقة هذا الجرح وآثاره الغائرة، هو الشرط لاكتمال العزاء الذي يسمح بالتقدم من دون التعثر عند كل خطوة استناداً إلى موارد الذاكرة، ذلك بأنه بعيداً عن الاحتفالية، وما يُشيد في المقابر، فإن الراحلين يعيشون فينا، أو يموتون ثانية إذا توقفنا عن التذكّر. ■